الدرس الصوتي القديم بين الهنود والإغريق والعرب

La vieille leçon de voix entre Indiens, Grecs et Arabes
The old voice lesson between Indians, Greeks and Arabs

أ/ محمد بولخطوط
جامعة محمد الصديق بن يحيى
جيجل (الجزائر)

تاريخ الإرسال:	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2019-02-06	2019-02-21	2019-02-28

الملخّص:

تتناول هذه الورقة البحثية مختلف الجهود اللغوية في الدرس الصوتي عند الأمم السابقة، وعلى وجه التحديد عند الهنود واليونان والعرب، نحاول من خلالها الوقوف على مختلف نقاط التقاطع بين هذه الجهود، ومدى تكاملها في الدرس اللغوي القديم؛ والتي تعود في مجملها إلى الأبجدية الصوتية التي اخترعتها الأقوام السابقة من أجل دراسة اللغة، باعتبارها القاعدة الأساسية التي تنطلق منها بقية مستويات التحليل اللغوي.

الكلمات المفتاحية: الدرس الصوتي القديم، الهنود، اليونان، العرب.

Abstract:

This paper discusses various linguistic efforts in the audio lessons of the former nations, specifically the Indians, Greeks and Arabs, in which we attempt to identify the various points of intersection between these efforts and the extent of their integration into the old language lesson; For the study of language, as the basic basis from which the other levels of linguistic analysis proceed.

Keywords: Ancient voice lesson, Indians, Greece, Arabs.

مقدمة:

حظيت دراسة الصوت اللغوي عند الكثير من الأمم السابقة بقدر كبير من التأمّل والنظر، وإن كان ذلك بشكل بسيط في بعض أبعاده وفي بعض أحايينه، إلّا أنّنا لا يمكن أن ننقص من قدره، أو نعتبره من البديهيات في حياتنا، إنّ من المسلّم به أنّ الصوت الواعي كان سببا في اختراع الحرف، حيث أنّه لما أدرك الإنسان: أنّ الصوت بإمكانه أن يكون حاملا لمعنى متمتّعا بالدلالة، أراد أن يجعل له قالبا يحويه فأوجد الحرف، ومن ثمّة كانت الكلمة واللغة، ثمّ إنّ التأمّل في هذه الأخيرة هو الذي أدّى إلى اختراع الكتابة، فهاهم الفينيقيون مثلا قد اخترعوا أبجدية حاولوا أن يمثّلوا بها أصوات لغتهم، وكانت تلك نقلة هائلة في تاريخ اللغات الإنسانية؛ فقد أصبح الحرف يمثّل صوتا واحدا بعد

أن كانت الكتابة رسوما كما في الهيروغليفية، أو أشكالا كما في السومرية والأكادية، وأسهمت الأمم العريقة في الحضارة إسهاما جيّدا في الدراسة الصوتية؛ فقد وصف علماؤهم أصوات لغاتهم وصفا دقيقا من حيث المخارج والهيئات المختلفة للصوت الواحد.

إذن فقد اشتغل اللغويون ـ منذ القديم ـ بالصوت اللغوي، ولعلّ البداية الأولى لهذا الاهتمام كما أسلفنا كانت حين اكتشاف الإنسان للكلام، ومحاولة تجسيده في صور نطقية وكتابية، وأهمّ الجهود التي عنيت بدراسة الصوت اللغوي كانت لدى الهنود واليونان والعرب، حيث صنّف كلّ قوم من هذه الأقوام أصوات لغتهم حسب "موضع النطق" أو"المخارج الصوتية"، نحاول في هذه الورقة البحثية التفصيل أكثر في الموضوع؛ من خلال الوقوف على مختلف الجهود التي بدلها علماء اللغة القدامى في مجال الدرس الصوتي، باعتبارها اللبنة الأولى والقاعدة المتينة التي انطلق منها علماؤنا المحدثين في دراستهم لأصوات لغاتهم. ففيم تكمن هذه الجهود؟ وكيف استطاع الهنود والإغريق والعرب وضع أبجدية صوتية تقوم عليها لغة كلّ قوم منهم؟

أولا: **الدراسة الصوتية عند الهنود:** يُجمع الباحثون أنّ الهنود ـ ومعهم العرب ـ كانوا من أقدم الشعوب، التي ظهر في تراثها ـ في وقت مبكر من تاريخها ـ بحث علمي منظم في المجال الصوتي. وفي هذا الصدد يقول المستشرق واللغوي الألماني "برجشتراسر" (Bergstrasse): «ولم يسبق الغربيين في هذا العلم؛ أي علم الأصوات، إلّا قومان من أقوام الشرق وهما: أهل الهند يعني البراهمة والعرب».[1] يتّضح جليّا من خلال هذا القول: إنّ العرب والهنود هم أسبق الأقوام اشتغالا بالأصوات من خلال الوقوف على مخارجها، وبيان صفاتها المميّزة ووصف ذلك وصفا علميا وموضوعيا دقيقا.

لقد اهتمّ الهنود بدراسة كتابهم المقدّس "الفيدا" ـ شأن العرب تماما ـ الأمر الذي دفعهم إلى وصف لغتهم وصفا دقيقا لاسيما من الناحية الصوتية؛ فلقد كان "بْرَاهْمَنْ بَانِينِي" (Brahman Panini) من علمائهم البارزين الذين وصفوا أصوات اللغة السنسيكريتية من حيث مخارجها وهيئاتها النطقية، وكان الهدف من ذلك أن يقف المتعلّمون على الطريقة الصحيحة في نطق الأصوات، عند قراءة كتابهم المقدّس "الفيدا" المكتوب باللغة السنسيكريتية القديمة، والتي كانت صلة الهنود بها ـ في زمن "بانيني" ـ قد أوشكت على الانقطاع، وعلى الرغم من أنّ النظام الكتابي في تلك اللغة ذو سمت مقطعي، فإنّ هذا لم يمنع "بانيني" من وصف كلّ صوت بمعزل عن مقطعه؛ وصفا صحيحا من حيث: المخرج وصفاته النطقية الأخرى.[2] يُفهم من خلال هذا الكلام أنّ غرض الهنود في دراستهم الصوتية هو غرض ديني لغوي؛ فالدّيني من خلال الاهتمام بدراسة كتابهم المقدّس، والحرص على ضبط نصوصه وقراءته قراءة صحيحة خالية من التصحيف والتحريف، وأمّا اللغوي فيتجلّى ذلك من خلال محاولة الإبقاء على اللغة السنسيكريتية المقدّسة والحفاظ عليها.

لقد تحدّث الهنود عن كيفية تسرّب الهواء إلى التجويف الحنجري، حيث ذكروا في باب تصنيف الأصوات إلى مهموسة ومجهورة: أنّ الأولى تنتج حينما يكون الوتران الصوتيان في النطق بالصوت

متباعدين، بحيث يكون لهذا التباعد دخل في عدم تذبذب الوترين الصوتيين، أو تذبذبهما تذبذبا ضئيلا، بينما الأخرى تحدث حينما يكون هناك تقارب بين الوترين الصوتيين، بحيث يتذبذبان من خلال مرور الهواء عبرهما محدثان نغمة موسيقية، كما صنّفوا الأصوات إلى صامتة وصائتة، وقسّموا الصوامت إلى "مغلقة" و"أشباه صائتة" و"ضيّقة"، وقد أقاموا هذا التقسيم على أساس صوتي: هو درجة تقارب أعضاء النطق عند نطق أصوات كل قسم من هذه الأقسام.(3)

على هذا الأساس تكون الدراسة الصوتية الهندية قد قامت على أسس وصفية فسيولوجية، مبنية على فحص وظائف أعضاء النطق وعلى تحديد مواضعها بالنسبة لكلّ صوت، وعلى درجة اتّصالها شأنها في ذلك شأن الدراسة الصوتية عند العرب، كما سيتمّ الإشارة إليها لاحقا، وهذا طبعا بخلاف الدراسات اليونانية التي انبنت على ملاحظة الآثار السمعية للأصوات، وعلى أسس منطقية صرفة.

ثانيا: الدراسة الصوتية عند اليونان: لم يكن الإغريق أقلّ اهتماما بأصوات لغتهم، وهم الذين تأثّروا بالطريقة الفينيقية في جعل الحرف ممثلا لصوت واحد، على نحو ما صار وما زال معروفا في النظام الأبجدي لمعظم لغات العالم، وقد نقل الإغريق هذا النظام إلى لغتهم، ومن ثمّة أخذ عنهم الأوروبيون فكرة كتابة اللاتينية بالحروف الممثّلة لأصوات تلك اللغة، غير أنّ عناية اليونان بالصوت من حيث طريقة نطقه الصحيحة كانت واضحة عند الخطباء، ومن كانوا يتعلّمون الخطابة وكانت دراسة الأصوات والحروف من أهمّ ما يقف عليه المتعلّمون، بل إنّ الفلاسفة الإغريق كانوا يجعلون تعلّم الأصوات ركيزة أساسية من ركائز تعلّم الفلسفة مثلما هي أساس من أسس تعلّم اللغة.(4)

إنّ المادة الصوتية المأثورة عن اليونان نجدها في أقوال متناثرة في محاورات "أفلاطون" (Plato)، وفي "الشعر" و"الخطابة" لـ "أرسطو" (aristotle) ونجد أكثرها في كتابات أهل النحو منهم: "ديونيزيوس ثراكس" (Dionysius Thracus)، "ديونيزيس هاليكارناسوس" (Dionisis Halikarnassus) ... ولمّا كان اليونان فلاسفة أكثر من كونهم علماء دين، فقد كانت نظرتهم «ميثافيزيقية شيئا ما، ولأجل ذلك اتّجهت الدراسة الصوتية عندهم إلى ربط السبب بالمسبّب، فقد تساءلوا عن ماهية اللغة وعن أصلها وعن ماهية الكلمة، وتساءلوا: هل هناك علاقة طبيعية وضرورية بين الكلمة وبين الشيء الذي ترمز إليه؟ أتعلّق المعاني بالكلمة تعلّق بالطبع أم تعلّق بالاصطلاح».(5)

إذن فقد اتّجهت الدراسات اللغوية عند اليونان إلى الجانب الدلالي أكثر منه إلى الجانب الصوتي، ويتجلّى ذلك بوضوح من خلال اهتمامهم بعلاقة اللفظ بالمعنى؛ أهي علاقة حتمية طبيعية؟ أم أنّها اعتباطية قائمة أساسا على التواضع والاصطلاح والاتفاق؟

ولكن هذا لا يعني أنّ اشتغال اليونان بالدراسات الدلالية انتفاء اهتمامهم بالدرس الصوتي، فقد اعتنى اليونانيون بالجوانب الصوتية للغتهم «وإن لم تتّسم في بعض جوانبها بالعمق وبعد الغور عن قواعد اللغة والتأويل والنطق، إلاّ أنّها أماطت اللثام عن بعض الظواهر المقطعية في لغتهم، التي

كشفوها إلى الفلاسفة السفسطائيين فكانت غدائهم الذي قدموه على مائدة الظواهر النطقية والوظائفية».[6]

لم يتفطّن اليونان إلى تقسيم أصوات لغتهم إلى القسمين الرئيسيين وهما: "الأصوات المهموسة" و"الأصوات المجهورة"، كما فطن إلى ذلك الهنود والعرب، غير أنّهم ساروا على نهجهم حينما أدركوا تصنيف الأصوات إلى (صامتة وأخرى صائتة)، لكنّهم اختلفوا مع الهنود في تقسيمهم للصوامت، وذلك حينما جعلوها على قسمين هما: «أشباه صائتة ومغلقة، واعتبروا "أشباه الصائتة" متوسطة بين "الصوائت" و"المغلقة" على أساس أنّ "أشباه الصائتة" وإن لم تكوّن مقطعا دون الاستعانة بصائت، إلاّ أنّها على الأقل يمكن أن تنطق وحدها».[7]لقد كان الرومان تلامذة لليونان في الدراسات اللغوية، فقد قلّدوهم في أكثر المسائل الفكرية والثقافية، إذ نجد جانبا كبيرا من المادة الصوتية المأثورة عندهم في كتابات نحويهم مثل: "بريسكيان" (Briskian)، و"ترنتيانوس" (Trentianos)، و"ماوروس" (Mauros) و"فيكتورينوس" (Victorinos)، ... ولم يبلغ الرومان من الدّقة في وصف لغتهم ما بلغه اليونان في وصف اليونانية، بل ما بلغه الهنود في وصف السنسيكريتية.[8]

هذا ويلاحظ على الآراء الصوتية لقدماء اليونان والرومان ـ كما أسلفنا ـ أنّها تقوم في جملتها على ملاحظات الآثار السمعية التي تتركها الأصوات في الأذن، وهي بهذا تختلف عن الآراء الصوتية لقدماء الهنود والعرب الذين أدركوا الأسس الفسيولوجية في تكوين الأصوات المختلفة.

ثالثا: الدراسة الصوتية عند العرب:اعتمدت الدراسات الصوتية العربية الأولى على ملاحظات القوم التي اتّسمت بالمباشرة والملاحظة الذاتية، القائمة على جدارة ومكانة الفكر العربي الإسلامي، وبرز من هؤلاء الأفذاذ علماء استطاعوا بما امتلكوا من القوّة والتمكّن والوضوح والحيوية، أن يمدّوا جسور التواصل ويحكّموا النسج ويسجّلوا الريادة في الحذق والمهارة، وهم يقدّمون جهودهم البحثية ورؤاهم التحليلية خدمة للغة التنزيل التي شرّفها وقدّسها الله تعالى، فكان قطبها ومحورها المركزي الذي دارت حوله رحى الدراسات.

إذن فقد اهتمّ العرب الأوائل بالصوت أيّما اهتمام، حيث جذب انتباههم إليه، ممّا دعاهم إلى دراسته ووصفه معتمدين في ذلك على التجربة باللسان والأذن، لا على المعامل والمخابر والأجهزة كما هو الحال عند علماء الأصوات المحدثين. وعلى هذا الأساس فإنّ السبب الرئيسي الذي أثار اهتمام العرب بلغتهم وأصواتها على نحو خاص ـ شأنهم في ذلك شأن الهنود ـ هو إحساسهم بضرورة الحفاظ على القرآن الكريم ولغته من التحريف والتغيير، حيث عملوا في «جهد لا يعرف الملل على إتقان النطق بأصوات هذه اللغة، وبالأخصّ عندما انتشر الإسلام في بقاع الأرض المختلفة، وطرقت أسماع العرب أصوات اللغات الأخرى، فخشي العلماء أن تنحرف أصوات العربية عن سمتها الصحيح نتيجة تأثرها بأصوات تلك اللغات، فلم يكد القرن الثاني الهجري يبدأ، حتى قام من بين علماء العرب من يصف مخارج اللغة العربية وصفا دقيقا، ويتحدث عن صفات تلك الحروف وأصواتها حديثا ينبي عن رهافة

في الحسّ، وشفافية في التعبير».[9] وقد حقّق العرب في ميدان الدرس الصوتي إنجازات مبكّرة، تمثّلت في أمور كثيرة من أهمّها:[10]

1 ـ وضع ألف بائية صوتية للغة العربية.

2 ـ تصنيف الأصوات العربية إلى فئات مختلفة وفقا لمعايير خاصة وضعوها، كتقسيم الأصوات إلى صحيحة ومعتلّة، مجهورة ومهموسة، شديدة (انفجارية) ورخوة (احتكاكية)، مستعلية (مفخّمة) ومستفلة (مرققة) ... الخ.

3 ـ وضع قواعد وقيود على نوعية الأصوات التي تجيزها قواعد بناء الكلمة العربية، من حيث عددها ونوعها وكيفية ترتيبها.

4 ـ محاولة الربط بين مستويي الصوت والدلالة في حدود البنى الصرفية.

5 ـ دراسة الجهاز النطقي عند الإنسان، وتقسيمه إلى مدارج ومخارج وأحياز، ثمّ نسبة كلّ صوت أو مجموعة صوتية إلى المخرج الذي تنتمي إليه.

6 ـ مقارنة بعض الأصوات العربية بأصوات اللغة الفارسية.

وقبل الخوض في جهود العرب في مجال الدرس اللغوي، وتحديدا على المستوى الصوتي، لابدّ من الإشارة في البداية إلى أنّ تصنيف العرب للأصوات العربية فيه تشابه كبير بتصنيف الهنود لأصوات لغتهم، ممّا يعني هذا أنّ التصنيف الهندي أقدم وأسبق من التصنيف العربي، وهذا ما ذهب إليه "محمود السعران" (Mahmoud Al-Saran) في كتابه "علم اللغة" حيث يقول: «وثمّة تشابه كبير بين تصنيف الهنود لأصوات السنسيكريتية حسب المخارج، وبين تصنيف العرب للأصوات العربية على هذا الأساس، ومعروف أنّ التصنيف الهندي أقدم كثيرا من التصنيف العربي، ومن مظاهر التشابه أنّ الهنود يرتبون الأصوات ابتداء من أقصاها في الحلق إلى الشفتين، ثمّ يذكرون الأصوات الأنفية، وهذا الترتيب هو الذي نجده عند "الخليل بن أحمد الفراهيدي" و كذا عند "سيبويه"، وهو الذي سار عليه المؤلفون العرب من بعد».[11]

إذن فالهنود يرتّبون الأصوات ابتداء من أقصاها في الحلق وينتهون عند حروف الشَفَا، وهو نفس الترتيب الذي اختاره "الخليل" (ت175هـ) حيث بدأ بحروف الحلق الأدخل منها فالأدخل، وكان أقصاها مخرجا ـ عنده ـ "العين" وانتهى عند حروف الشفتين، وجعل لحروف الجوف حيّزا منفردا وسمّاها بالأصوات الهوائية، وهو نفس الترتيب الذي سار عليه تلميذه "سيبويه" (ت180هـ) ومن جاء بعدهما من العلماء مع بعض التفصيل والتدقيق.

ولئن كان "محمود السعران" قد تحدّث عن مواطن الاتّفاق بين التصنيفين الهندي والعربي، فإنّ "كوليزار كاكل عزيز" (Kulizar Kakhel Aziz) من جهتها قد سلّطت الضوء على أوجه التباين القائمة بينهما، علما أنّها لا تنكر نقاط التشابه المذكورة سلفا، وفي ذلك تقول: «وإن كان هناك أوجه شبه بين دراسات العرب الصوتية، ودراسات الهنود في المجال نفسه، فإنّ الاختلاف بينهم شديد في

نقاط كثيرة ومنها: أنّ حروف الهجاء عند الهنود واحد وخمسون حرفا، وفي العربية تسعة وعشرون حرفا، ولا نجد في دراسات العرب الصوتية اهتماما كبيرا بالتقسيم المقطعي والعكس نلاحظه في دراسات الكتب النحوية والصرفية، فكانت دراسة الأصوات عند العرب دراسة تابعة أو ثانوية، وكانت أقلّ أهمّية قياسا بالهنود».[12] أمّا إذا أردنا أن نؤرّخ لبداية الدرس الصوتي عند العرب فإنّنا نلفيها تعود إلى "أبي الأسود الدؤلي" (ت69ه) حيث تشير أغلب الروايات أنّه كان يقول لكاتبه: «إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فأنقط نقطة فوقه على أعلاه، وإن ضممت فمي فأنقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف».[13]

فمن خلال هذا الكلام يمكن القول: إنّ "أبا الأسود الدؤلي" قد اكتشف عن طريق ملاحظة حركة الشفتين: الحركات الثلاث، أو ما يطلق عليه تسمية "الصوائت" في النظام الصوتي للغة العربية. بيد أنّ هناك روايات تنسب هذه الحادثة إلى الإمام "علي" (كرّم الله وجهه)؛ الذي أمر تلميذه "أبا الأسود" بوضع قواعد تضبط اللغة، وتقيها من الفساد والتحريف؛ لما رآه من تفشي اللحن على ألسنة الناس قريبهم وبعيدهم بسبب مجاورتهم للعجم. نقل صاحب كتاب "تأسيس الشيعة" أنّ الشيخ: "أبو الحسن سلامة الشامي النحوي" قال: «إنّ عليّا دخل عليه أبو الأسود يوما، قال: فرأيته مفكرا، فقلت له: مالي أراك مفكرا يا أمير المؤمنين؟ قال: "إنّي سمعت من بعض النّاس لحنا، وقد هممت أن أضع كتابا أجمع فيه كلام العرب" فقلت: إنْ فعلت ذلك أحييت أقواما من الهلاك، فألقى إليّ صحيفة فيها الكلام كلّه: اسم وفعل وحرف؛ فالاسم ما دلّ على المسمّى، والفعل ما دلّ على حركة المسمّى، والحرف ما أنبأ عن معنى، وليس باسم ولا فعل، وجعل يزيد على ذلك زيادات. قال: واستأذنته أن أصنع في النحو ما صنع، فأذن وأتيته به فزاد فيه ونقص، وفي رواية: أنّه ألقى إليه الصحيفة، وقال له: "أنح نحو هذه"، وفي رواية أخرى قال: "ما أحسن هذا! أنح نحوه».[14]

ثمّ جاء "الخليل بن أحمد الفراهيدي" الذي عُني كثيرا بدراسة الأصوات وموسيقى اللغة، وقد ساعده سمعه المرهف الحسّاس على التفوق في هذا المجال، فوجّه اهتمامه لأوزان الشعر وإيقاعه، وقام باستخراج بحور الشعر وقوافيه، أو ما يعرف اليوم بـ "علم العروض" والذي لا يعدو أن يكون دراسة صوتية لموسيقى الشعر، كما وضع لنا معجما صوتيا بامتياز؛ رتّب مواده حسب مخارج الحروف وهو "كتاب العين". وبهذا يكون "الخليل" صاحب أوّل تصنيف للأصوات العربية حسب موضع النطق أو حسب الأحياز، ممّا جعله يتوصّل إلى تقسيم أصوات العربية إلى قسمين هما: «الأصوات الصحيحة (الحروف الصحاح)، والأصوات اللينة أو الهوائية؛ أي التمييز بين ما هو صامت وبين ما هو صائت».[15] رأى "الخليل" أنّ الترتيب المألوف لحروف الهجاء العربية وهو: أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، ...الخ، إنّما استمدّه النّساخ والكتبة من الترتيب السامي القديم الذي اشتهر عند الأمم السامية القديمة كالفينيقين والعبريين، وأنّ النسّاخ قد وضعوا الرموز المتشابهة الصورة بعضها بجوار بعض ليسْهُل حفظها، كما وجد "الخليل" أنّ هذا الترتيب الهجائي لا يقوم على أساس علمي فآثر

ترتيبا آخر أساسه "مخارج الحروف"، وعلى أساسه رتّب معجمه العين كما أشرنا، فبدأ «بأصوات الحلق، ثمّ أصوات أقصى الفم، ثمّ أوسط الفم، ثمّ أدناه، ثمّ الشفتين».(16)

هذا ولم يكتف "الخليل" بدراسة الصوت معزولا، بل درس كذلك وظيفة الصوت في النظام اللغوي للعربية دراسة علمية دقيقة كالإدغام، المضارعة، الإعلال، الإبدال والقلب المكاني... ممّا يسمح بالقول: إنّه قد درس أصوات العربية دراسة: «فونيتيكية وفونولوجية».(17)، وهذا يعني أنّه قد اهتمّ بدراسة الصوت وهو مستقلّ (منفرد) عن بقية الأصوات الأخرى، وفي الوقت ذاته عُني بدراسة وظيفة الصوت اللغوي عندما يسبقه صوت آخر أو يتبعه صوت ما... وكيف يتأثر هذا الصوت ويفقد بعض صفاته، أو خصائصه التي كان يملكها، أو يتصف بها لحظة كونه مفردا معزولا ومجرّدا؟. ثمّ كيف يغيّر الصوت معنى الكلمة؟

بعدها واصل "سيبويه" طريق أستاذه "الخليل"، فقدّم دراسة للأصوات أوفى من دراسة أستاذه وأكثر دقّة، حيث أورد دراساته الصوتية هذه أثناء حديثه عن ظاهرة الإدغام، وهي ظاهرة صوتية صرفية، وكان منهجه في ذلك كمنهج أستاذه "الخليل"، وكمنهج "أبي الأسود الدؤلي" من قبل «وصفيا واقعيا، قائما على الملاحظة الذاتية، وبعيدا عن الافتراض والتأويل».(18)

إذن فقد جاء "سيبويه" صاحب "الكتاب" بدراسة صوتية أكثر دقّة من دراسة أستاذه، ويبدو ذلك واضحا من خلال تفصيله في مخارج الأصوات موضعا وعددا، حيث جعلها ستة عشر مخرجا.

وقد تأثّر بكتاب "سيبويه" كل من جاء بعده من النحّاة واللغويين، ليس في آرائه النحوية فحسب، بل حتّى في آرائه الصوتية كذلك، فأخذوا يردّدون كلامه في الأصوات دون أن يزيدوا عليه ما يستحقّ الذكر، فلم يترك لهم "سيبويه" في كتابه فراغا يرأبونه ولا نقصا يضيفونه، فها هو "الزّجاجي" (ت340هـ) مثلا وهو من علماء "القرن الرابع الهجري"، نجده يتكلّم في كتابه "الجمل" عن الإدغام، والذي لا يحدث إلّا من خلال معرفة مخارج الحروف وصفاتها، ومن علماء هذا العصر كذلك الذين تأثّروا كثيرا بأفكار "سيبويه" نجد "ابن جني" (ت392هـ) إذ وضع كتابا مستقلا في علم الأصوات سمّاه "سرّ صناعة الإعراب"، حيث لا يكاد يخرج فيه عن كلام "سيبويه" في تعداد المخارج ووصف الحروف، فكثيرا ما يقتبس نصّ العبارات الواردة في "الكتاب"، ويقف عند حدودها، بيد أنّه أوّل من استعمل ولأوّل مرّة مصطلح "علم الأصوات" منبها بذلك إلى العلاقة بين علم الأصوات وبين علم الموسيقى، كما كان من خلال كتابه هذا الأسبق في تعرضه لطبيعة ووظيفة الجهاز النطقي عند الإنسان، مشبّها إيّاه بالناي وبوتر العود، كما استطاع بذكائه وسرعة بداهته أن يتنبّه إلى الدور الوظيفي التمييزي الذي يؤديه الصوت اللغوي، وهذا ما يعرف اليوم بمصطلح: "الفونيم".(19)

كما يمثّل "ابن جني" من خلال كتابه هذا مرحلة تطوّر عميق في الدرس للغوي عامة، والصوتي خاصة من حيث تحديده وتصنيفه للمفاهيم الإجرائية والآليات البحثية في الأصوات العربية، كما جعل مباحث "علم الأصوات" مدخلا لدراسة قضايا التصريف المتداخلة، ومستوى قاعدي تقوم

عليه باقي المستويات اللغوية الأخرى من صرف ونحو وبلاغة، واستهلّ حديثه عن الأصوات اللغوية بتحديدات أوّلية عن أهمّ الثوابت المساهمة في إنتاج الصوت والمقطع والحرف والجرس.[20]

وجاء القرن "الخامس الهجري" يحمل إلينا رسالة صغيرة في الأصوات العربية للطبيب الرئيس: "ابن سينا" (ت428هـ) موسومة بـ "أسباب حدوث الحروف" وهي رسالة مقسّمة إلى ستة فصول: «الأول منها: في سبب حدوث الصوت، ويقصد به صوت الإنسان وغيره، والثاني: في سبب حدوث الحروف، ويقصد بها الأصوات الإنسانية، والثالث: في تشريح الحنجرة واللسان، والرابع: في الأسباب الجزئية للحروف العربية، والخامس: للحروف الشبيهة بهذه الحروف، وليست في لغة العرب، والسادس في أنّ هذه الحروف من أيّ الحركات غير النطقية قد تُسمع».[21]

وحديث فيلسوف الإسلام "ابن سينا" في هذه الرسالة أشبه بحديث علماء وظائف الأعضاء، فلا نكاد نلمح فيها تأثرا كغيره بكتاب "سيبويه"، فله مصطلحاته الخاصة ووصفه الأصيل لكلّ صوت، ممّا جعله محلّ إعجاب وتقدير من بعض اللغويين المحدثين.

إذن، فقد استطاع "ابن سينا" من خلال هذه الرسالة أن يصف أسباب حدوث الأصوات العربية ومخارجها وصفا دقيقا ومحكما على شاكلة وصف "سيبويه" لها، كونه كان طبيبا ممّا مكّنه ذلك من تشريح الحنجرة، ومعرفته لدور الوترين الصوتيين في إحداث الصوت الإنساني. وفي القرن "السادس الهجري" يؤلف "الزمخشري" (ت538هـ) كتابه "المفصّل" في النحو، ويخصّص القسم الأخير منه «للدراسة الصوتية، فيردّد فيه كلام الخليل وسيبويه دون زيادة تذكر».[22] ولا نكاد نجد بعد هذا في كتب المتأخّرين ما يمكن أن يتّسم بالأصالة في دراسة أصوات اللغة، سوى تلك المحاولة التي جاءت في كتاب "السّكاكي" (ت626هـ) "مفتاح العلوم" في أوائل القرن "السابع الهجري"، والمتمثّلة في رسم بدائي لأعضاء النطق، كما هو موضح في الشكل أسفله:[23]

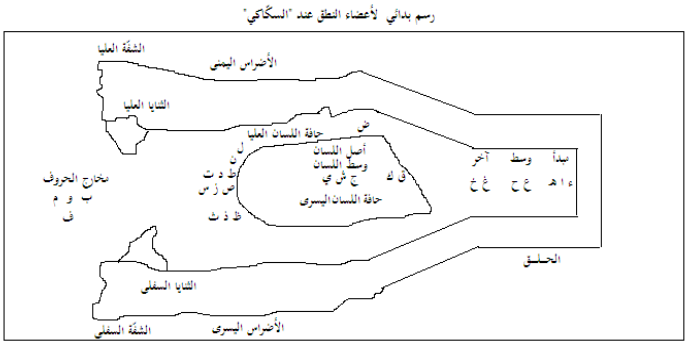

الشكل ـ 1 ـ

كانت هذه لمحة تاريخية سريعة عن أبرز الجهود الصوتية عند القدماء، وكلّ ما جاء به المحدثون هو في الحقيقة استثمار للنتائج التي توصّل إليها اللغويون القدامى، وإعادة تصنيفها وتنظيمها، ولعلّ أبرز المصنّفات الحديثة العربية والغربية التي أُلِّفَت في هذا الحقل، نشير على سبيل الذكر لا الحصر إلى ما يلي:

كتاب "الأصوات اللغوية" لـ "**إبراهيم أنيس**" (Ibrahim Anis) ، "علم اللغة العام (الأصوات)" لـ "**كمال محمّد بشر**" (Kamel Mohammed Bisher) اللغة العربية معناها ومبناها" وكتاب "مناهج البحث في اللغة" لـ "**تمّام حسّان**" (Tammam Hassan)، "علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي" لـ "**محمود السّعران**" (Mahmoud Al-Saran) "الصوتيات والفونولوجيا" وكتاب "اللسانيات العامة وقضايا العربية" لـ "**مصطفى حركات**" (Mustafa Harkat) ، دراسة الصوت اللغوي" لـ "**أحمد مختار عمر**" (Ahmed Mokhtar Omar) ، "أصوات اللغة" لـ "**عبد الرحمن أيوب**" (Abd-ul Rahman Ayoub)، "مباحث لغوية في ضوء الفكر اللساني الحديث" لـ"**عبد الجليل مرتاض**" (Abd-ul Jalil Murtaza)، "دروس في علم الأصوات العربية" لـ "**جان كانتينو**" (Jean Cantino) ترجمة "**صالح القرمادي**" (Al-Qarmadi Saleh)، "علم الأصوات العام" لـ "**بسّام بركة**" (Baraka Bassam)، "في الصّوتيات العربية" لـ "**محيي الدّين رمضان**" (Mohieddin Ramadan) "الألسنية العربية" لـ "**ريمون طحّان**" (Raymond Tahan)، و"**عبد الرحمن الحاج صالح**" (Abd-ul Rahman Al-Haj Saleh) في مشروعه اللساني الموسوم بـ "الذخيرة اللغوية العربية"، وكتابه: "مدخل إلى علم اللسان الحديث"، ...الخ.

خاتمة: نصل في ختام هذه الورقة البحثية إلى رصد النتائج التالية:

- ✓ أخذ علم الأصوات حظاً لا بأس به من البحث في العصور المتقدمة، وخصوصا عند الهنود والإغريق والعرب، حيث اختلفت جهود هؤلاء في مجال دراسة الصوت من حيث الكم والكيف، ومع ذلك تبقى هذه الجهود قليلة مقارنة مع اهتمامهم بمختلف المسائل والقضايا المتعلّقة بباقي المستويات اللغوية الأخرى، على غرار المستوى الصرفي والنحوي وحتى الدلالي.
- ✓ ارتكز الدرس الصوتي الهندي والعربي على أسس وصفية فسيولوجية، في حين كان الدرس اليوناني أقرب من الدلالة أكثر منه إلى الصوتيات لاهتمامهم بالفلسفة والمنطق.
- ✓ بلغت الجهود الصوتية عند العرب كما رأينا مبلغا لم تبلغه البحوث الصوتية، لا عند الهنود ولا حتى عند الإغريق، ويكمن السر في ذلك في أنّ المباحث الصوتية العربية إنّما جاءت أساسا من أجل ضبط تلاوة القرآن الكريم، وحسن أدائه تفاديا لتسرّب اللحن إليه، يضاف إلى هذا أنّ للصوت في اللغة العربية، وتحديدا في رحاب القرآن الكريم قيمة فنية متميّزة، تجلّت في مختلف المقاييس التي وضعت لضبط هذا الصوت، وإجادة أداءه وحسن التعبير عنه.

-الهوامش

(1) ـ برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1414هـ/ 1994م، ص 11.

(2) ـ ينظر: سمير شريف إستيتية، اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 1425هـ/ 2005م، ص 17.

([3]) ـ ينظر: محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، دس، ص ص 88، 91.

([4]) ـ ينظر: سمير شريف إستيتية، اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج، ص18.

([5]) ـ عمّار ساسي، المدخل إلى الصوتيات تاريخيا جهود متعاقبة عبر العصور من الفرعونية إلى العصر الحديث، إصدارات مخبر اللغة العربية وآدابها كلّية الآداب واللّغات، جامعة سعد دحلب ـ قطب العفرون ـ البليدة، الجزائر، دط، 1434هـ/ 2013م، ص65.

([6]) ـ عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1418هـ/ 1998م، ص15.

([7]) ـ ينظر: محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص ص88، 91.

([8]) ـ ينظر: المرجع نفسه، ص88 وأيضا: ص 323.

([9]) ـ عالية محمود حسن ياسين، الدرس الصوتي في التراث البلاغي العربي حتّى نهاية القرن الخامس الهجري، إشراف: محمد جواد النوري، رسالة مقدّمة مكمّلة لنيل شهادة الماجيستير في اللغة العربية وآدابها، قسم الأدب واللغة العربية، جامعة النجاح الوطنية، الأردن، السنة الجامعية: 1424هـ/ 2003م، ص 3.

([10]) ـ المرجع نفسه، ص ص 3- 4.

([11]) ـ محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص 90.

([12]) ـ كوليزار كاكل عزيز، دلالات أصوات اللين في اللغة العربية، دار دجلة ناشرون وموزّعون، عمّان، الأردن، ط1، 1430هـ/2009م، ص 57.

([13]) ـ عصام نور الدّين، علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا)، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص 162.

([14]) ـ السيّد حسن الصدر، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة، دب، دط، دس، ص49. وللتوسّع أكثر ينظر:المرجع نفسه، ص ص49، 53.

([15]) ـ عصام نور الدّين، علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا)، ص 162.

([16]) ـ رمضان عبد التوّاب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط3، 1417هـ/ 1997م، ص15.

([17]) ـ عصام نور الدّين، علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا)، ص 163.

([18]) ـ المرجع نفسه، ص 164.

([19]) ـ ينظر: رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص16، و: عصام نور الدّين، علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا)، ص ص 164، 166.

([20]) ـ عمّار ساسي، المدخل إلى الصوتيات تاريخيا جهود متعاقبة عبر العصور من الفرعونية إلى العصر الحديث، ص130.

([21]) ـ رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص ص 17، 18.

([22]) ـ المرجع نفسه، ص 18.

([23]) ـ سراج الملّة والدّين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمّد بن علي السكاكي، كتاب مفتاح العلوم، المطبعة الميمنية، مصر، دط، 1318ه/ 1897م، ص 5.

قائمة المصادر والمراجع:

1) برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1414ه/ 1994م.
2) رمضان عبد التوّاب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط3، 1417ه/ 1997م.
3) السكاكي؛ سراج الملّة والدّين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمّد بن علي، كتاب مفتاح العلوم، المطبعة الميمنية، مصر، دط، 1318ه/ 1897م.
4) سمير شريف إستيتية، اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 1425ه/ 2005م.
5) السيّد حسن الصدر، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة، دب، دط، دس.
6) عالية محمود حسن ياسين، الدرس الصوتي في التراث البلاغي العربي حتّى نهاية القرن الخامس الهجري، إشراف: محمد جواد النوري، رسالة مقدّمة مكمّلة لنيل شهادة الماجيستير في اللغة العربية وآدابها، قسم الأدب واللغة العربية، جامعة النجاح
الوطنية، الأردن، السنة الجامعية: 1424ه/ 2003م.
7) عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1418ه/ 1998م.
8) عصام نور الدّين، علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا)، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1992م.
9) عمّار ساسي، المدخل إلى الصوتيات تاريخيا جهود متعاقبة عبر العصور من الفرعونية إلى العصر الحديث، إصدارات مخبر اللغة العربية وآدابها كلّية الآداب واللّغات، جامعة سعد دحلب ـ قطب العفرون ـ البليدة، الجزائر، دط، 1434ه/ 2013م.
10) كوليزار كاكل عزيز، دلالات أصوات اللين في اللغة العربية، دار دجلة ناشرون وموزّعون، عمّان، الأردن، ط1، 1430ه/2009م.
11) محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، دس.